العقل والعقلانية بين الاسلام والغرب

توبى ا۰ هاف ترجمه د۰ احمد محمود صحبى

وكان وليم أوف كونشيس William of Conches أكثر صراحة حين أكد أنه ليس من شأن الكتاب المقدس أن يدلنا على طبيعة الأشياء وذلك عن شأن الفلسفة(٤٩) ، وهكذا يبعد التوازي جليا بين عبارة جاليليو في القرن السابع عشر (إن هدف الروح القدس أن يعلمنا كيف يذهب المرء إلى السماء لا كيف تسير السماء(٥٠) .

ولم يقف التحديث عند هذا الحد ، بل إلى حد نقد الكتاب المقدس ذاته ، إذ ناهضت نصوص الكتاب المقدس العقل ونظامه فينبغي ألا يفهم النص على ظاهره ، غير أن تيري أوف شاريزس لم يذهب إلى هذا الأمر إذ في تعليقه على سفر التكوين يقول : هذه دراسة تفسيرية للإصحاح الأول من سفر التكوين من وجهة نظر باحث عن العمليات الطبيعية Se-cundum physicam ، والمعنى الحرفي للنص(٥١) ، ولكن وليم اوف كونشيس ذهب إلى أبعد من ذلك حين أكد أولوية الاستدلال الفيزيقي ، بينما تقول صفحات الكتاب المقدس : «ثم قسم المياه التي تحت الفلك عن تلك التي فوق الفلك» وحيث إن عبارة كهذه متعارضة مع العقل ومن ثم فإنها لا يمكن أن تكون كذلك(٥٢) ، ويبدو أن هؤلاء الرجال من العصر الوسيط كانوا روادا في إقحام العقل وأدوات الاستدلال المنطقية على الكتاب المقدس والتقارير التاريخية أو بمعنى آخر بداية النقد الشديد في دراسة الكتاب المقدس(٥٣) .

وحيث يبدو تصور العالم ككل متحد ، فالإنسان جزء من هذا العقلاني ، ومن ثم فإنه وهب العقل ويستطيع أن يقرأ وأن يحل رموز أنماط العقل أو بالأحرى أن يقرأ كتاب الطبيعة(٥٤) ، ويمكنك أن تجد هذه الفلسفة العقلانية أو الانثروبولوجية عن الإنسان وقد دونها كتاب كثيرون منهم إدلار أوف باث Adelard of Bath : (ومع أن الإنسان لم تسلحه الطبيعة ولا هو بقادر على الطيران ، فإن لديه ما هو أفضل وأهم : إنه العقل ، لأنه بامتلاك هذه الملكة تفوق على الوحوش إلى حد أن أخضعها له ، ومن ثم فإنك ترى كيف أن منحة العقل ليست مجرد زاد فيزيقي)(٥٥) .

وهكذا وجدنا أفكارا كثيرة عن تكوين الطبيعة وعن وضع الفلسفة المعارضة للدين والكتاب المقدس وعن عقلانية الإنسان كلها قد ظهرت مع النهضة في القرن الثاني عشر ، وقد واجهت هذه تفصيلات كثيرة مع وصول التيار الأرسطي الجديد والترجمات من اليونانية والعربية ، غير أن عقلانية أفلاطون هي التي وضعت الأساس بصدد التصور الفيزيقي (والميتافيزيقي) عن العالم ككل منسق وأهم من ذلك كله ، أنها أقامت اعتقادا ثابتا عن المقدرة العقلية للإنسان كي يفهم ويشرح الطبيعة ، وبالمثل أن يفسر ويشرح الكتاب المقدس ، وهكذا أعلنت الفلسفة المسيحية واللاهوت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أن الإنسان كائن حاصل على العقل وقد مكنته تلك المقدرة على أن يحل طلاسم الكلمة المقدسة نفسها دون عون من الوحي ودون حاجة إلى تحايل على النص .

وكانت هذه الرؤية على نقيض من التفكير الإسلامي في ذلك الوقت سواء تعلق الأمر بالفلاسفة أو المتكلمين ، لأنه من بين المتكلمين هناك الرؤية الأشعرية عن الإنسان والطبيعة القائمة على فكرة الذرية الإسلامية (المعروفة باسم العلل العرضية)[٥٦] تعارض تماما النظام الكوني كما عبرت عنه مؤلفات علماء اللاهوت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ومع أن كلا من الفارابي وابن سينا قد تأثرا بأفلاطون فإنهما لم يجدا ذلك الإلهام الذي وجده اللاتين في «طيماوس» ، لقد طور هؤلاء الفلاسفة العرب الرؤى الفلسفية الأفلاطونية التي تتعارض مع تفكير صفوة المفكرين في الإسلام ولكنهم لم يعلوا من شأن التصور العقلاني والميكانيكي للعالم الذي وجده الأفلاطونيون الأوروبيون في القرن الثاني عشر في الصرح الأفلاطوني ، بل ما هو أبعد في المفارقة أن المتكلمين لم يستوعبوا التصور الطبيعي عن العالم والمكّون من القوى العلية عن العالم ، بل إنهم لم يتسامحوا في مسألة أن نفس الوقائع الواردة في القرآن بتفسيرات طبيعية كما فعل ثيري Thierry ووليم أوف كونشيس ,W. of Conches في الكتاب المقدس في أوروبا في القرن الثاني عشر ، بل إنه حتى في القرن العشرين يروي جيب حالة الشيخ

المصري محمد أبو زيد في عام ١٩٣٠ ، ذلك أنه بعد أن نشر طبعة عن تفسير القرآن فيها انتقادات للمفسرين القدامى فسر المسائل الغيبية بوسائل طبيعية ، ومع أن الغاية كانت تشجيع الشباب على دراسة القرآن ، فإن الكتاب قد صودر ، كما صدرت التعليمات بمنع الكاتب من الوعظ أو عقد اجتماعات دينية[٥٧] .

ونفس المشاعر كانت في إدانة رواية سلمان رشدي (آيات شيطانية)* بحيث يمكن القول إن تقليد نقد الكتاب المقدس (والذي قد يكون شديدا) إنما هو تقليد ديني غربي متأصل منذ القرن الثاني عشر والثالث عشر في أوروبا ، والذي وجد تطورا قويا أثناء عصر التنوير[٥٨] ، وعلى العكس فإن مثل هذا التقليد لم يتطور في الفكر الإسلامي ، وكان غيابه مصدر اعتراضات على أخيلة الناس وعن حوادث تاريخ الإسلام[٥٩] .

ودون الدخول في تفاصيل أعمق ، فإنه يمكن القول إن النهضة في القرن الثاني عشر في أوروبا وضعت أسس برنامج البحث العلمي بعد أن نقل وهذب ، وقد طورته الصفوة الدينية التي سيطرت على الحياة الفكرية والتي تتضمن كما يرى تينا ستيفال Tina Stiefel القضايا الآتية :

١ ـ إن البحث العقلي والموضوعي للطبيعة من أجل فهم عملها ممكن مرغوب فيه .

٢ ـ إن مثل هذا البحث إنما يوظف التقنية والرياضيات والاستدلال الاستنباطي .

---

* ليس كل ما يوجه من نقد إلى القرآن أو الرسول يعبر عن نزعة عقلانية تنويرية ، فاعتراضات المسلمين على رواية (آيات شيطانية) لسلمان رشدي كانت بسبب ما فيها من حط من شأن الرسول وآل بيته . هذا ولا يقاس نقد الروايات التاريخية في الكتاب المقدس وتلك سمة عصر التنوير على القرآن ، لأن المسلمين يعدون كتابهم المقدس وحيا إلهيا محفوظا لم تنله يد التحريف بخلاف الكتاب المقدس ، فضلا عما في الروايات التاريخية في الكتاب المقدس من حط من شأن الأنبياء والزعم بارتكابهم الفواحش مما دعا تنويريا مثل فولتير إلى اعتبار أن ذلك لا يمكن أن يكون وحيا ولا قال به موسى وإنما دسه حبر لا خلاق له على التوراة (المترجم) .

٣ ـ إنه قد ينظف مناهج البحث التجريبي أو الشهادة القائمة على استخدام الحواش ما دام ذلك ممكنا .

٤ ـ إن الباحث عن معرفة عمليات الطبيعة أو بالأحرى العالم ينبغي أن يفكر منهجيا وأن يتحنى بالرزانة .

٥ ـ وعلى العالم أن يتجنب كل أصوات السلطة والتقليد والرأي العام بصدد كيف تعمل إلا إلى المدى الذي يكون فيه الخبر تحققا وعقلانيا .

٦ ـ وعلى العالم أن يمارس الشك المنهجي وأن يتحمل حالة من التشكك في بحثه من أجل فهم الظاهرة الطبيعية[٦٠] .

ومن ثم فإنه يمكن القول مع تينا ستيفال Tina Stiefel أن الفيصل الفكري إنما يتكون من مقدرة علمية من حيث إنها تضع برنامجا للبحث من خلال سياق ميتافيزيقي يفترض أن حوادث الطبيعة إنما يشرحها شرحا عقلانيا أناس يستخدمون أدوات المنطق وهبة الله للإنسان من عقل فضلا عما تقتضيه خطة البحث من تسليم بالنظام السببي للطبيعة كما أعلنته محاورة طيماوس والمصادر الأخرى حيث إن كان هناك مجال للمعجزات فإنه يجب أن تتقيد بقيود شديدة الصرامة .

وبهذه العناصر من النزعة الطبيعية والعقلانية بل الآلية في فلسفة الطبيعة يقوم العلم ، فليس عجبا أن هذه الحركة الكاملة التي عززتها الأرسطية الجديدة أثارت رد فعل شديدا في الكنيسة المسيحية التقليدية في القرن الثالث عشر ، واتخذت هذه صورة الإدانة الشهيرة في عام ١٢٧٧ بواسطة أسقف باريس اسطفان تمبير Stephen Tempier لعدد كبير من القضايا الفلسفية ، على أن هذه الإدانة لم تؤثر إلا قليلا في الحرية الأكاديمية من أجل أن تمنع تدريس أرسطو أو أن تحول دون التفكير العلمي ، على العكس فإن تدريس كتب الطبيعة لأرسطو وكذلك كتابه للنبات والحيوان والآثار قد تم في الجامعات الرئيسية في أوروبا واستمرت حتى القرن السابع عشر[٦١] .

هذا ويجب ألا يفوتنا أن نذكر أن الجهود الرامية إلى جعل اللاهوت علما كانت حركة أساسية خلال هذه الفترة من الزمن وأنها بدورها دفعت الحياة الفكرية إلى وجهة نسقية وإلى اتجاه على وعي بما تقتضيه المنهجية وقل مثل ذلك على القانون (كما سنرى في الفصل الرابع) ومنذ أن اتخذت خطوة أبعد فإن التزاما قويا متكافئا قد اتخذ بصدد فكرة الإنسان والعقل[٦٢] ، فكرة راسخة في الفكر اللاهوتي والفلسفي حركة تجاه علم للطبيعة متحرر من القيود الدينية فذلك ما لا مفر منه مهما كانت القوى الرجعية التي تصادفه ، وما زال مصدرا آخر في الغرب للاعتقاد التلقي إلى جانب العقل والعقلانية وهي فكرة الضمير .

العقل والضمير

بينما يسعى الفكر الكلاسيكي في التشريع الإسلامي إلى أن يحد العقل ويقيده بإحكام كمصدر التشريع* فإن القانون الغربي والأوروبي قد تطور في الطريق المخالف ، وكما سنرى فقد كان الأوروبيون في العصر الوسيط متجهين في الفلسفة واللاهوت والعلم الطبيعي تجاه فكرة أن العالم يحكمه نظام عقلاني وإن الإنسان ـ كمشارك في خلق هذا النظام ـ قد وهب العقل ، ويعد هذا الالتزام الميتافيزيقي منذ اللحظة الأولى من الميراث اليوناني وبخاصة من خلال عربة «طيماوس» كما كان هناك تقبل مسيحي لهذه الفكرة من خلال فكرة السيندرسيس Synderesis أو الضمير وهي فكرة ترجع إلى الكتاب المقدس وبخاصة إلى العهد الجديد[٦٣] .

ويجد الإنسان لفظة الضمير في كتابات القديس بولس مقترنة بفكرة شاهد وحاكم داخلي على أفعال وبواعث الإنسان ، وإنه مصدر للراحة

* يصدق كلام المؤلف على العصور المتأخرة منذ إغلاق باب الاجتهاد فقط أما قبل ذلك ـ فكما أشار المؤلف نفسه ـ كان العقل مصدراً للتشريع في الاجتهاد : الأصل الثالث من مصادر التشريع (المترجم) .

وتأنيب الضمير[٦٤] ، وكان المفسرون المسيحيون على وعي بأن الضمير باعتباره قوة أو ملكة مكتسبة أو ممثلا لمعرفة الخير ، وإنه قوة تحدد للفعل الطريق المستقيم أو للحكم والرقابة على الأعمال ، ومن ثم فليس الضمير مجرد شعور بالتأنيب ، تلك نزعات الضمير في علم النفس ولدى فرويد ، وإنما هو نائب مركب منبثق عن الروح قادر على التمييز ، فكما يقول بول تيليش Paul Tillich لقد تبنت المسيحية دوما من حيث المبدأ المسؤولية الأخلاقية غير المشروطة للفرد وفقا لمذهب القديس بولس عن الضمير ، ويذهب سان اكوين إلى أن على الإنسان أن يعصي أمر أي قوة أعلى يكون قد أقسم لها على الطاعة إذا كانت هذه القوة قد طلبت شيئا مخالفا للضمير ، وكانت كلمة لوثر المشهورة أمام الإمبراطور في «ورمز» إنه لا يحق للمرء أن يفعل شيئا مخالفا للضمير . . هذا هو المذهب المسيحي التقليدي عن الضمير ، ولقد تأكدت هذه المفارقة في كتابات بولس حين ميز بين القانون ككلمة الله المكتوبة أي التوراة وما يناظرها من كلمته المسطرة في قلوب الناس[٦٥] ، يقول بولس : (حيثما يطيع الأمميون الذين لا قانون لهم غريزيا مقتضيات القانون ، فهذا هو قانونهم ، مع أنه ليس لديهم قانون ، فإنهم بذلك يقدمون أثر القانون المكتوب في القلوب ، ضميرهم الشاهد عليهم حسب معتقدهم الخلقي بما يرفض أو يسمح من أفعال[٦٦] ، وينبغي أن يلاحظ أن اللفظ «سيندرسيس Synderesis في فكر القديس بولس لم يأت من العهد القديم أو التقليد اليهودي كما يبدو من ظاهر اللفظ وإنما من الفكر الشعبي والهيليني[٦٧] .

وقد أصدر آباء الكنيسة «سان امبروزو St. Ambrose (ت٣٩٧) و«باسيل» Basil (ت ٣٧٩) ، و «اوريجين» Origen (ت ٢٥٣) تعليقات مهمة على هذه الملكة الروحية للمعرفة ، ولكنه «جلوس أوف سان جيروم»[٦٨] Gloss of St. Jerome هو الذي جعل اللفظ أكثر شمولا وعمقا بعد أن جعل منه مصدرا دائما للتأمل الفلسفي واللاهوتي خلال

العصر الوسيط ، وقد حدد هذه المهمة ما أضفاه جيروم على اللفظ اليوناني Synteresis بمعنى الضمير ، انه ابتكار له دلالته ، لأن المعنى اللاتيني أوسع وأبعد عن التحديد من نظيره اليوناني ، إذا كانت هناك نظائر ، لأن اللفظ اللاتيني Conscientia[٦٩] إنما يفيد الوعي بالمعرفة بوجه عام وبخاصة في مسائل الخبرة أو الإدراك ، كما يفيد معنى معرفة الحقائق أو تلك التي تسود فيها المهام العملية[٧٠] .

إنه بحق البعد الأخلاقي للضمير هو الذي أصبح لب المذهب المسيحي لفكرة الضمير ، ولكن الرواقيين كانوا قد سبقوا في إعلاء شأن الضمير ، وإليهم غدا مفهوم وعي الإنسان بالقانون الأخلاقي الطبيعي ووعيه بما يكون من تطابق أو نقص في أفعاله للقانون[٧١] ، ومن ثم اعتبر «سنيكا» أن الضمير حارس إلهي في الإنسان[٧٢] ، ثم كان رأي جيروم متابعا التفسير الأفلاطوني لحلم خذقيال حيث أصبح ، السيندرسيس المكون الرابع للضمير وهذه الفكرة هي التي جعلت الفلاسفة واللاهوتيين يعملون جاهدين على التوفيق بين الإمكانيات الفلسفية لهذا البعد الرابع ، يقول سان جيروم : St. Jerome (هناك العقل والروح والشهوة وهذه تناظر الإنسان والأسد والثور ، وفوق هذه الثلاثة يوجد النسر ، ومن ثم فإنه فوق هذه المكونات الثلاثة يوجد رابع سماه اليونانيون Synde-resis إنه وميض الضمير الذي لم ينطفئ في قلب قابيل (قاتل أخيه) حينما طرد من الجنة*[٧٣] .

وقد ثارت المشكلات الفلسفية والفكرية لمدة قرنين على ما خلفه جيروم ، وغدت مصدرا لمناقشة نقدية ، ثم حلت نهائيا في القرن الثالث عشر في مؤلفات توماس الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤) .

* هكذا ذكرها المؤلف ، وصحتها إما : آدم حين طرد من الجنة وقد انبّه ضميره على معصية الإله ، وإما قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل وقد انبّه ضميره بعد أن شعر بعجزه عن أن يواري جثمان أخيه وعلّمه الغراب (المترجم) .

ودون الذهاب إلى مدى أبعد في هذا الجدل[٧٤] ، يمكن القول إن مسيحيي العصر الوسيط قد نسبوا إلى الإنسان ضميرا يتضمن وجود ممثل باطني للمعرفة يسمح للفرد أن يصل إلى الحقائق الأخلاقية والسلوكية وأن يحكم على تصرفاته ، لقد نسبوا إلى الإنسان ملكة عقلية قادرة على أن توجه الأزمات الخلقية والسلوكية ، ويمكن أن ننهي قولنا بأن العصور اللاهوتية والفلسفية عن الإنسان تؤكد عقلانية الإنسان ، وكل من الاكليركيين الذين استفادوا من الفكر الفلسفي اليوناني ، وأولئك الذين استندوا إلى المصادر اللاهوتية وإلى الكتاب المقدس ، نسبوا إلى الإنسان قدرات متشابكة من العقل والعقلانية ، وقد امتدت هذه القدرات المتشابكة إلى الطبيعة بمثل ما استوعبت الحقائق الدينية الخلقية ، فلأن الإنسان حاصل على الضمير ، ممثل عقلي أخلاقي لا يظمأ فإنه يستطيع أن يصل إلى الحقائق الأخلاقية دون مساعدة من الوحي ، وحتى إن وقع في الخطيئة فإنه مكرهٌ على أن يتبع ضميره ، إنه بالضمير الطيب يسترشد كثير من المسيحيين من أجل تنفيذ الواجبات المسيحية بذكاء وإيمان وقد أصبحت في عام ١٢١٥ صيغة الضمير ذات طابع عالمي لكل المسيحيين الذاهبين إلى الاعتراف لأن لديهم ضميرا ويودون أن يخلصّوا أنفسهم من الخطيئة الأخلاقية[٧٥] ، ومهما حاول المرء أن يبذل جهده لتنظيم أفعاله الخلقية الداخلية فقد تحددت الصورة الميتافيزيقية للإنسان ، إنسان له عقل وضمير ولا مفر من ذلك ، وما أن يتعرف هذا الوازع حتى يعلو الإنسان إلى مستوى يتقبل منه كل الإدراكات الخلقية والقانونية التي تشكل معيارا للسلوك ، إن الأفراد في كل مقامات ومراحل العناية عليهم أن يمارسوا ذلك ، فالإصلاح اللوثري من هذه الوجهة من النظر ثورة شاملة حررت الضمير جاعلة منه الحكم الأعلى حتى على حقائق الكتاب المتدس ، وبذلك فسرت الأورثوذكسية الدينية المعركة حيث تحرر كلا من العقل والضمير كي يؤديا واجباتهما[٧٦] .

(للمقال بقية)